الحسناء

الجزء السادس — المجلد الثالث

بيروت شهر آذار سنة ١٩١٢

مونا ليزا جوكوندا

وكان ظلام الكهف حالكاً جداً .. ولم يمض غير القليل حتى نشأت في عاطفتان متنازعتان : الخوف والرغبة .. الخوف من ظلام الكهف والرغبة في الاطلاع على ما يمكن لهذا الكهف ان يحواه من الاسرار العميقة

ليوناردو دي فينشي

ليوناردو

في صيف سنة ١٩١١ سرقت من متحف اللوفر في باريز صورة كتبت عنها جرائد العالم (الاجرائدنا) فصولاً طويلة . ودفع خمسة ملايين فرنك لمن يرجعها مع العفو عمن اخذها وحتى الآن لم ترجع . وهي صورة « مونا ليزا جوكوندا » من قلم « ليوناردو دي فينشي » المصور الشهير الذي ولد في قرية فينشي من اعمال فلورنسه عاصمة بلاد توسكانا ومات في قصر « كلو » قرب « امبواز » في فرنسا ١٤٥٢ — ١٥١٩ وقد كان ايضاً نحاتاً . ومهندساً . وعالماً طبيعياً . وفيلسوفاً . وكاتباً وشاعراً . وموسيقياً .. وقد امتاز في كل هذه الفروع الفنية . والعلمية . فكان من اكبر رجال النهضة الايطالية . وهذا الرجل المرتقي السابق عصره بمراحل لم يكن يكفيه كونه مفكراً كبيراً . ومتفنناً عظيماً . بل كان يدفع دائماً وراء مطاليب عقله السامي من فن الى فن ومن اختراع الى اختراع . وهو مدفوع بقوة طبيعية في كيانه ولا غاية له سوى الابداع . وقد تقلب في خدمة الامراء والبابوات والملوك . فبنى لهم القصور . والقلاع . والجسورة . ونصب التماثيل وزين الردهات بالرسوم واقترح عليهم مشاريع عظيمة مثل تحويل مياه الانهر لتري الاراضي وخرق الجبال لتقريب المسافات مما لم يقدم عليه احد قبله . الا ان هؤلاء العظماء مثل دوق ميلانو . وقيصر بورجيا . ولورنس المديسي . ولاون العاشر وفرنسيس الاول لم يساعدهم الحظ على اتمام تلك المشاريع لاشتغالهم تارة بالثورات . وطوراً بالحروب والغزوات . ولكن

هذا الرجل الذي اشتغل اكثر من غيره من الناس لم يبق من اثاره سوى القليل ومن جملتها صورة « مونا ليزا » التي فقدت مؤخراً من متحف اللوفر وحتى الان لم يهتد احد اليها او يعرف اين هي

وصورة « مونا ليزا جوكوندا » هي من ابدع الصور التي صورها ليوناردو وهي في نوعها ابدع صورة وجدت على الارض من يوم صوّر الانسان صوراً . وقد اشتغل فيها مصوّرها مدة اربع سنوات دون ان يكملها كما كان يشتهي

ولما كان التعبير عن معنى اهميتها وجمالها صعباً بالكلام وخصوصاً لابناء العربية فقد ترأت لنا طريق هينة توصل من يسير عليها الى قمة عالية فاذا كان نظره صحيحاً يشاهد من هناك ما يرغب في مشاهدته .

وهذه الطريق توصلنا اولاً الى فلورنسه عاصمة توسكانا وترجع بنا الى سنة ١٥٠٥ والى يوم من ايام الربيع

كيف كان يصورها

الان المعلم ليوناردو دي فينشي موجود في محل شغله . وقد وقف امام النافذة ونظر الشمس تخرق حجاب الغيم الرطب . وتنشر على الاشياء نوراً بخارياً مع خيالات لطيفة . نوراً كان يحبه ويقول عنه انه يكسب الوجه جمالاً خصوصياً .. وقف مفكراً ثم قال :

امن الممكن انها لا تاتي اليوم ! .. قال ذلك وهو يفكر بالتي كان يصورها منذ ثلاث سنوات بثبات ونشاط لم يسبق لهما مثيل في حياته . ثم انه اخذ يرتب المحل لاستقبالها وعلى ملامح وجهه وفي حركاته تبدو آثار الانتظار .. فرتب الريش والالوان ورفع الستار عن صورة فوق مرفع ذي ثلاث قوائم . ثم اطلق نوفرة في وسط الدار كان قد بناها اكراماً « لها » وكانت الازهار التي تحبها . ومنها زهر السوسن التي غرستها يدها . مفتحة الان تعطر بشذاها الهواء .. وجاء بصينية صغيرة عليها فتات من الخبز قد قسمها من قبل لاجل الازالة التي كانت تتنقل الان في فسحة الدار . والتي كانت « هي » تطعمها من يدها .. ثم وضع امام المقعد المهيا لها سجادة عجمية ناعمة فاتى سنور ابيض شرقي الجنس نادر الوجود فنام في محله على تلك السجادة يردن ردن لطيفاً

وجاء ايضاً شاب ومعه رفاق وكلهم من الموسيقيين حاملين الالات موسيقية من اختراع ليوناردو . وكان هذا يدعوهم غالباً كما كان يدعو قبلاً بعض الشعراء والمغنين لاجل « تسليتها » في محل شغله ولكي يبعد عنها الضجر الذي يستولي على اوجه الذي يجلسون

امام المصورين .. وكان يلذ له ان يدرس على ملامح وجهها تاثيرات الافكار والمشاعر التي كانت تولدها الاحاديث والموسيقى وانشاد الشعر . الا ان هذه الاجتماعات امست الان نادرة لان المعلم تيقن بانها لم تكن بعد ضرورية وان « ليزا » لم تعد تضجر من الجلوس امامه احداً كل شيء ولم تاتي بعد ؟ — النور والظل هما على ما اشتهي فهل يجب ان ابحث من يستطلع اخبارها ؟ ولكنها تعلم جيداً اني بانتظارها فلا بد لها من الحضور !

وازداد قلقه وجزعه وهو الذي كان دائماً رائقاً وهادئاً فبغتة هب نسيم لطيف فاماث مياه النوفرة فتمايلت ازهار السوسن تحت رشاش المياه فاصغى ليوناردو وشعر بانها قد جاءت دخلت الاخت كاميلا مسلمة باحتشام وهي راهبة كانت تساكنها وترافقها كلما جاءت الى المصور ووراء الراهبة كاميلا اقبلت تلك التي كان الجميع ينتظرونها وهي امرأة في الثلاثين من عمرها مرتدية ثوباً بسيطاً قاتماً وعلى رأسها قناع شفاف يغطي نصف جبينها وكانت هذه « مونا ليزا جوكوندا »

مونا ليزا

وكل ما كان المعلم يعرفه عنها هو انها كانت من اسرة قديمة في مدينة نابولي وان والدها فقد كل ثروته عند احتلال الفرنسويين لتلك المدينة وهي الان الزوجة الثالثة لرجل من رجال فلورنسه يدعى « فرنسيسكو دال جوكوندا » تزوجها بعد موت الاولى والثانية من نسائه

ولما ابتدأ ليوناردو بعمل صورتها كان قد تجاوز الخمسين وعمر زوجها خمساً واربعين وهو عضو من اعضاء الجمهورية الفلورنسية الاثني عشر ، رجل عادي من الذين يكثر عددهم في كل مكان لا يرجى نفعه ولا يخشى ضرره ، على جانب عظيم من التوفير دأبه مزاولة الامور التجارية وخدمة المصالح العمومية ويعتبر جمال زوجته الفتاة من جملة التحف المزدان بها منزله على ان جمالها لم يكن يهمه اكثر من تحسين اجناس البقر وزيادة واردات الجمهورية من جلود المواشي وكانوا يزعمون انها لم تتزوجه حباً به بل اذعاناً لارادة والدها بعد موت خطيبها الاول في ساحة الحرب ويرددون كثيراً من الاخبار والنوادر عن المفتونين بجمالها الرائع والمنبوذين منها بيد ان الالسن الطويلة النمامة وان تكن كثيرة في فلورنسة فانها لم تفه بادنى كلمة شريرة عن ليزا وهي كانت تبدو دائماً بمنظر السكينة والحشمة والتقى وتتمم بالتدقيق واجباتها الدينية وتتصدق على الفقراء وتهتم بتدبير منزلها وترعى حرمة العهد لزوجها وتعامل بالحسنى ابنة له من زوجته الاولى معاملة الام لولدها

هذه هي الامرأة التي وصلت الان مع اراهبة كاميلا الى محل ليوناردو دي فينشي لتجلس امامه والصورة التي رفع المعلم الستار عنها قبل مجيئها هي صورتها الا ان الناظر الى تلك الصورة والى التي تمثلها اذا كان ممن قد اعطي لهم ان يحسنوا النظر والفهم يخال له ان الحقيقة تكاد ان تكون دون الرسم و يلاحظ ايضاً شبهاً وسراً عميقاً بين المعلم ومونا ليزا و يشعر امام هذا الشبه وهذا السر بتعجب اشبه بالخوف كأنه امام شيء وهمي وفوق الطبيعة

ولم يكن ليوناردو قد شاهد مونا ليزا جوكوندا في غير وقت الشغل و بحضرة اشخاص آخرين ودائماً مع الراهبة كاميلا فالسر الذي يلاحظه الناظر ليس والحالة هذه بسر حبي او بالاحرى ما يسمونه حباً

وكثيراً ما كان ليوناردو يقول : ان الفن غير محدود والمتفنن يميل بالطبع الى رسم ملامحه في الاجسام التي يرسمها وفي الكتابة والشعر وهو يرى سبب هذا الميل في كون النفس تحب ان تكيف حسب شعورها غلافها الجسمي فحينما تريد ان تكون جسداً جديداً فمن البديهي انها تجعل خطوط الجسد الجديد مطابقة للذي تكون قد كيفته هي ذاتها حتى انه في صور الميتات يبدو وراء الشبه الخارجي اذا لم تكن هيئة المصور ذاته فعلى الاقل نفسه كما تبدو في الكتابة وان اختلفت المواضيع نفس الكاتب والشاعر

واذا كان الناظر قد اعطي له ان يلاحظ دقائق الامور فانه يرى شبهاً بين ليوناردو ذاته و بين مونا ليزا وليس هذا الشبه في ملامح الوجه وحده بل في معنى العيون ونظراتها وخصوصاً في ابتسامة الفم وكان المعلم قد عالج رسم هذه الابتسامة في كل الصور التي عملها قبل تعرفه بمونا ليزا كأنه لم يكن يفتر عن البحث عن تلك الابتسامة الى ان وجدها على فم مونا ليزا وهي ابتسامة طبيعية بيد انها تملأ الناظر حيرة ودهشة وخوفاً في وقت واحد وكانت تلك الابتسامة ترفعها في عين المصور عن مقام مخلوقة حية وزوجة رجل كسائر الناس وتجعلها كطيف خيال قد استنزلته ارادة المعلم اليه كأنه صورة له ثانية

مملكة آلهة الجمال والحب

ما كاد المعلم يبتدي بالشغل حتى القى القلم من يده وانعم النظر في وجه السيدة التي لم يكن ادنى تأثير على ملامحها يخفى عليه ثم قال لها

— ان امراً يشغل فكرك يا سيدة

فرفعت هي نظرها الرائق نحوه واجابت

— نعم امر صغير لا اهمية له فريضي مريضة ولم انم في الليل الماضي

— من الممكن ان تكوني تعبانة يضجرك الجلوس . او ليس من الموافق ارجاء العمل الى يوم آخر

— كلا الا تأسف عَلَى ضياع يوم مثل هذا اليوم ؟ انظر هذه الخيالات اللطيفة والنور الباهت فكان هذا النهار قد صنع لاجلي .. وبعدما صمتت قليلاً قالت : كنت عارفة بانك تنتظرني ولو لم تزرني بعض النساء الزائرات لما تاخرت عن المجيء قبل الآن

فاذاً هذا هو السبب وليس انحراف صحة ربيبتك . الم تلاحظي يا ما دونا ان ثرثرة لا معنى لها من اناس لا معنى لهم ولا هم يهمونا بشيء تظلم نفوسنا وتكدر صفو حياتنا اكثر من احزاننا الخصوصية

فاحنت براسها وكان الواحد منهما قد تعود فهم افكار الاخر دون كلام

ثم امسك القلم يريد استئناف الشغل فقالت له

— هلا اخبرتني شيئاً ايها المعلم ؟

— ماذا تريدين ان اخبرك ؟.

فافكرت قليلاً وقالت : اخبرني قصة مملكة الهة الجمال وكانت تفضل عَلَى جميع الاخبار ما يتعلق بتذكارات ليوناردو الشخصية من اسفار وملاحظات عن الطبيعة ومواضيع فنية يريد اتمامها .. وهو يردد تلك الاخبار بكلمات بسيطة وصوت رخيم

فاشار عَلَى الشاب الموسيقي فاخذ هذا قيثارته وجعل يعزف عليها الحاناً رخيمة وشرع هو يخبر ليزا بصوته اللطيف وكلماته البسيطة عن مملكة ربة الجمال والحب فقال

ان البحارة الذين خاضوا عباب البحر يؤكدون ان من كتب لهم البخت ان يهلكوا غرقاً ينظرون احياناً في وسط الزوابع الهائلة جزيرة فبرس مملكة الهة الجمال والحب . وحولها تزأر العواصف وترتفع الامواج وتتحطم بعنف وعناد عَلَى الصخور .. وكثير هو عدد البحارة الذين يرمون بسفنهم وانفسهم عَلَى تلك الصخور منجذبين بجمال الجزيرة الفتان . آه كم من السفن قد تحطمت وغرقت في اللجة ! فعلى الشاطيء لا تزال بقاياها المحزنة وقد طمر نصفها في الرمل وغطت النصف الآخر رغوة المياه والاعشاب البحرية . فهنا يرى مقدم بعض تلك السفن مرتفعاً وهناك مؤخرها . والى جانبها تقع العين عَلَى جسم سفينة بضلوعها الظاهرة كانها هيكل انسان لم يعبث بعد فيه البلى . ووراءها بقايا سفن اخرى محطمة تحطيماً ومتبددة عَلَى وجه المياه بكثرة هائلة حتى يتوهم الناظر انه في يوم البعث . اما سماء تلك الجزيرة الفتانة فهي دائماً زرقاء صافية والشمس تلمع عَلَى جبالها وسهولها الزاهرة .

والهواء فيها لطيفاً هادئاً . حتى ان دخان المباخر الشاعلة على درجات الهيكل يصعد مستقيماً مثل عواميد الرخام البيضاء ومثل اشجار الشربين السوداء الشاخة تنعكس خطوطها في بحيرة جامدة وشفافة مثل المرآة .. ولا يسمع هناك سوى خرير النوافر اللطيف والالعاب المائية المتسلسل من حوض الى حوض . وعن بعد ينظر بنو البشر هذه البحيرة الهادئة قريبة المنال ولكنهم لا يستطيعون الوصول اليها والهواء يحمل اليهم من بعيد شذا غابات الآس وكلما اشتدت الزوبعة هولاً في البحر كان الهدوء مستتباً في مملكة الزهرة الهة الحب والجمال

وساد بعد هذا الحديث وبعد نفحات القيثارة الشجية سكوت هو اجمل من كل سكوت . ولم يعد يسمع سوى خرير النوفرة في وسط الدار

وكأن مونا ليزا وقد اسكرتها نغمات الموسيقى وابعدها هذا السكوت عن حقيقة الحياة قامت طلقة المحيا ذهولة عن كل شيء ما عدا ارادة المعلم فاخذت تتأمل في عينيه بابتسامة مملوءة اسراراً كأنها مياه صافية راكدة يمكن للعين ان تبصر غورها

والان يمكن للناظر الفطن ان يشاهد من هذا العلو « ليوناردو دي فينشي » ومونا ليزا جوكوندا » كأنهما مرآتان ينعكس من كل من الواحدة في الثانية صورة لمعنى واحد الى ما لا نهاية له

اخر اجتماع

وفي مساء ذاك اليوم استدعى نقولا ميكافالي مستشار جمهورية فلورنسه ليوناردو دي فينشي اليه وباحثه في انشاء قناة يحول فيها مياه نهر « الارنو » عن مدينة « بيزا » مما يقتضي تغيبه عن فلورنسه مدة من الزمن . فعاد الى منزله وقد مر هزيع من الليل وهو يسير على ضفة النهر وحده مفكراً . وينظر من حين الى آخر نجمة منفردة تشع فوق راس الجبل . ويتأمل في المدينة الراقدة بسكينة وعهده بها ذات حركة وحياة .. ثم افتكر فجأة بمونا ليزا جوكوندا وتعجب من كونها زوجة لرجل كفرنسيسكو ضعيف البنية طويل القامة على خده الشمال ثؤلولة وله حاجبان غليظان . ومثل اكثر العامة لا يلذ له الحديث الا عن التجارة والاشغال . وكان ليوناردو احياناً يلذ له جمال مونا ليزا المعنوي الغريب والفائق الطبيعة الممكن ان يقال عنه انه اقرب الى الحقيقة من الحقيقة ذاتها . الا انه في بعض الاحيان كان يتأثر ايضاً من جمال شخصها الفتان

ولم تكن مونا ليزا من النساء المتعمقات في العلوم . ولم تتكلم ابداً عن معارفها الادبية . ولم يعرف ليوناردو الا بطريق العرض انها تحسن اللغتين اللاتينية واليونانية . وكانت

البساطة منتشرة على هيئتها الخارجية ومازجة لهجتها وحديثها الذين لم يكونا خاليين من الفطنة والذكاء . وكانت تنطق احياناً ببعض كلمات تقربها منه اكثر من جميع الذين يعرفهم . فيواها ويعتبرها صديقة مدونة . واختاً حنونة . وكلما كان يتأمل فيها كانت تتجلى له الصورة المعنوية التي كان يرسمها عنها بمظاهر تكاد نفسه الجميلة تتجسم فيه بكمالها

وكان يتساءل عما اذا كان يجوز له ان يسبر عمق تلك النفس الحية القريبة منه بنفس الرغبة التي كان يدرس فيها العلوم . الا تغضب اخيراً تلك الصديقة وتبعده باحتقار و بغض شأن غيرها من النساء ؟ اما الان وقد دنى وقت ابتعاده عن فلورنسه فانه شعر بحاجة الى تقرير فكره على وجه من الوجوه . اتبقى مونا ليزا في نظره امرأة مصنوعة من لحم ودم او تظل في جنانه تلك الصورة المعنوية التي كان يحلم بها دائماً ؟ .. وبينما هو هائم في تلك الافكار واذا به قد وصل الى شارع ضيق مظلم وسمع من احدى النوافذ صوت غنما فوقف مصغياً . وكان الصوت يقول : ما اجمل الشبيبة — وما اسرع زوالها — فمن يريد ان يفرح فليفرح — الغد لا يعرف كيف يكون

ولما سمع الشطر الاخير شعر بغم في نفسه . اما الان وقد رزقها الحظ في خريف حياته المنقضية في العزلة والحزن نفساً حية كنفسه . فهل يقصيها عنه زهداً بالحياة من اجل التأمل مفضلاً تضحية الحاضر لاجل المستقبل والحقيقة لاجل الوهم ؟ أيختار الجوكوندا الحية او الجوكوندا المعنوية مع علمه ان اختيار الواحدة يفقده الاخرى ؟ وكلتاهما عزيزتان لديه . وسار في الشوارع المظلمة حتى وصل الى مسكنه فطرق الباب في سكون الليل ومن بعيد يسمع اصوات الاجراس الليلية وكأنها ترددد : الغد لا يعرف كيف يكون

وفي الغد جاءت مونا ليزا الى محل ليوناردو وحدها وهذه اول مرة لم تصحبها فيها الراهبة كاميلا وكانت عارفة ان تلك المواجهة هي الاخيرة

وكان نور الشمس هذه المرة ساطعاً فارخى المعلم ستاراً خفف من حدة النور وجعل الخيالات لطيفة مما اكسب وجه ليزا منتهى الجمال .. وكانا وحدهما . واقبل على العمل صامتاً مستجمعاً الكارة وشاعراً براحة في نفسه ناسياً الافكار التي كانت قد اقلقته في الامس عن الفراق والحاجة الى تقرير فكره على وجه من الوجوه . وكأني به قد شعر بان سير الزمان قد وقف فاضمحل عنده الماضي والحاضر والمستقبل ولم يعد يرى الا تلك الامرأة الفتاة جالسة امامه وعلى فمها تلك الابتسامة السحرية الغريبة الصافية .. كانما كانت دائماً جالسة امامه وستبقى كذلك الى الابد . وكان ينظر اليها بعض الاحيان بنفس العين

والنوع الذين كان ينظر بهما الى المحكوم عليهم بالاعدام لما كان يرافقهم ليدرس على ملامحهم اخر تاثيرات العذاب والنزاع

ورأى بغتة ظل فكر ضعيف يلوح على جبين ليزا كاثر النفس على وجه المرآة واراد ان ينسخ هذا الظل الذي أبهم عليه معناه و يعود بليزا على ما كانت عليه في دائرة الحلم فشرع يقص عليها قصة من تلك القصص المشابهة للالغاز التي كان يدونها في مفكراته قال: « دفعتني الرغبة في استطلاع ما ابدعته الطبيعة العظيمة والغنية من الاشكال الجديدة والغريبة التي يجهلها الناس ولا يحلمون بها. و بعدما سرت مسافة بين صخور وعرة وصلت الى مدخل كهف مظلم فوقفت هناك جاهلاً متردداً حتى عزمت اخيراً على الدخول . فاحنيت رأسي وانحنيت واضعاً يدي الشمال على ركبتي و باليمين حاجباً عيني ليتعودا على الظلمة ثم تقدمت بعض خطوات مقطب الحاجبين اخرز العينين مستجمعاً حدة نظري لعلني اكتشف شيئاً . الا ان الظلام كان حالكاً جداً ولم يمض غير القليل حتى نشأت في عاطفتا ن متنازعتان الخوف والرغبة في الاطلاع الخرف من ظلام الكهف والرغبة في الاطلاع على ما يمكن لهذا الكهف ان يحويه من الاسرار العميقة »

وسكت المعلم والظل لا يزال ظاهراً على وجه « الجوكاندا » فقالت

— وايهما العاطفتين تغلبت على الاخرى ؟

— عاطفة الرغبة في الاطلاع

— وهل كشفت اسرار الكهف ؟

— قد عرفت ما تمكن معرفته

— وهل تبوح بذلك لبني البشر ؟

— هذا غير ممكن وانا لا اعرف كيف اطامعم عليه ! لكني اود لو استطعت ان اجعل فيهم رغبة شديدة تقوى فيهم على الخوف والتردد !

فنظرت اليه مونا ليزا نظرة حادة وغريبة وقالت :

— واذا كانت هذه الرغبة في الاطلاع ليست كافية ايها المعلم ليوناردو . واذا كان يلزم شيء اعظم لمعرفة غاية الاسرار واعظمها ؟ قالت ذلك وهي تنظر في عينيه بابتسامة لم يكن قد لاحظها على فمها فاجاب :

— وماذا يلزم اكثر من الرغبة الشديدة ؟

فسكتت مونا ليزا .. وكان نور الشمس قد اخترق طيات الستار ووقع على الارض

فانار المكان وتغيرت الالوان والخيالات وزال معها عن وجه ليزا ذلك الجمال غير المتناهي كنغمات الموسيقى . ثم قالت :

— وهل انت مسافر غداً ؟

— بل هذا المساء

— وانا ايضاً ساسافر عن قريب

فادرك انها مسافرة لئلا تبقى دونه في فلورنسه . فهم بان يقول شيئاً لكنه سكت فتكلمت هي :

— زوجي فرنسيسكو عازم على الذهاب الى جهات كالابريا بداعي اشغاله وقد طلبت منه ان يصحبني معه

فحوّل نظره وهو مقطب الحاجبين فرأى بتضجر نور الشمس يشوّه جمال الاشياء حوله بتغيير الوانها واظهار خطوطها القاسية .. وشعر بضعف وشفقة في قلبه فقالت له مونا ليزا : ليس هذا بشيء . يمكنك ان ترتب الستار فالوقت لم يفت وانا لست تعبة

— كلا .. هذا يكفي .. قال ذلك وقد ترك الريشة من يده

— وهل لا تكمل ابداً هذه الصورة ؟) فاجاب بحدة ورهبة

— ولماذا ؟ هل لا ترجعين اليّ بعد عودتك ؟

— نعم سارجع .. ولكن ربما تغيرت بعد شهرين فلا تعود تعرفني هل لم نقل بان هيئة الناس وخصوصاً النساء تتغير بسرعة

فقال بهدوء كأنه يحدث نفسه . كنت اشتهي ان اكملها . لكني لا اعرف . يظهر لي احياناً ان ما اريده هو مستحيل

فاجابت بتعجب ! : مستحيل ؟ فلقد سمعت قبلاً بانك لا تكمل شيئاً لانك بالحقيقة تطلب المستحيل

وخيل له انه يسمع في كلامها هذا عتاب ملؤه وداعة ولطف .. فقال في فكره : وهل الامر هكذا : وحالاً استولى عليه شعور مؤثر . اما هي فنهضت وقالت ببساطة كعادتها: قد حانت الساعة فالوداع يا معلم ليوناردو اتمنى لك سفراً سعيداً

فرفع نظره اليها وتراءى له هذه المرة ايضاً على وجهها معنى لشكوى اليأس والرجاء . وهو يعلم جيداً ان تلك الدقيقة سوف تمرّ ولا تعود ابداً . وكانت هي واقفة تبتسم له ابتسامة صافية وهادئة كما كانت تبتسم له دائماً . لكنه الان قد تراءت له هذه الابتسامة الصافية وهذا

الهدو مثل الابتسامة والهدو الذين يظهران عَلَى محيا الاموات . فشعر في قلبه بشفقة عظيمة لا تقاوم فزادته ضعفاً عَلَى ضعف . ومدت مونا ليزا يدها نحوه وهو جامد وبكل هدو اخذ اليد وقبلها لاول مرة من يوم عرف ليزا و بالوقت عينه شعر بانها قد انحنت بسرعة ورسمت عَلَى شعره الجميل قبلة لطيفة وقالت ببساطة : الله يحرسك !! وذهبت!

ولما عاد ليوناردو لذاته كانت قد بعدت عنه كثيراً وحواليه يسود سكون مضجر يضيق الصدر ، سكون اكثر ارهاباً من سكون الظلام الاشد هولاً والاكثر حلكاً

ومثل الليل الماضي سمع في الظلام اصوات الاجراس ترن وكأنها ترده . الغد الغد لا يعرف كيف يكون

و بعد شهرين من الزمان عرف ليوناردو ان في احدى قرى كالابرين الصغيرة قد ماتت مونا ليزا جوكوندا

بيع الصورة

سنة ١٥١٥ غزا الملك فرنسيس الاول الفرنساوي بلاد توسكانا وسعى لاستمالة اصحاب الفنون اليه ولما لم يسمح البابا لاون العاشر ليكال انجلو ولرافايل بالذهاب مع الملك اكتفى هذا بالمعلم ليوناردو دي فينشي وقد بلغ الرابعة والستين من عمره فاخذه الى فرنسا واسكنه قصر « كلو » قرب « امبواز » واجرى عليه رزقاً سنوياً مكرماً وفادته ملقباً اياه (بابي) احتراماً له . فتشجع ليونارد واقترح عَلَى الملك اجراء ما كان يحلم به من المشروعات الكبيرة فلقي اقتراحه صدى في قلب الملك بادىء الامر الا ان المقربين من جلالته ما لبثوا ان حولوا افكاره عن ابراز تلك المشروعات الى حيز العمل . فيئس المعلم هذه المرة ايضاً من اظهار مخبئات عقله وعزم عَلَى الاعتزال عن الناس وقد مات في قلبه ما كان يعلقه من الامال عَلَى الملوك والامراء . وقضى ما بقي له من العمر منفرداً بين التفكير بالاختراعات مثل درس اجنحة الطيور وطيرانها رجاء ان ينتهي الى صنع آلة للطيران . لكنه كتب اخيراً في مفكرته : « لا يمكن الطيران بالاجنحة بل يجب ايجاد قوة ثانية ... وهذه القوة سيجدها الانسان الراغب في الاطلاع » وكبناء غواصة تمكن من السير فيها تحت المياه وكتب عنها في مفكرته . « لا اشهر هذا الاختراع لئلا يستعمله اشرار الناس لتدمير السفن الكبيرة »

ولم يكن قد اخذ معه الى فرنسا من صوره سوى صورة مونا ليزا جوكوندا فكان كلما استولى عليه الانقباض واليأس ينظر بها فتعيد ابتسامتها السحرية الراحة لنفسه

وسمع ذات يوم وقع اقدام خارج القصر فقال لخادمه . لا تدع احداً يدخل عليّ بل

قل اني مريض . وشاهد الخادم الملك قادماً يعض رجاله فبادر الى فتح الباب ولم يكد المعلم يتمكن من ارخاء الستار على صورة امامه لم يكن يدع احداً ينظرها حتى دخل الملك واراد المعلم ان يجثو امامه حسب العادة فلم يتركه بل قبله في جبينه مستخبراً عن صحته واحواله وعمله . وبينما ليوناردو يجيب : انا مريض سيدي لا استطيع العمل) كان يجتهد في ابعاد الصورة من امام الملك الذي سأل عما تحت هذا الستار فاجابه : هي صورة قديمة لا اهمية لها وقد شاهدتها جلالتك غير هذه المرة .. فالح الملك برؤيتها ثانية قائلاً : كلما اطلت النظر الى صورك ايها المعلم زادت في عيني حسناً . وفيما المعلم يتردد في رفع الستار تقدم رجل من الحاشية ورفعه فاذا هي صورة مونا ليزا .. فقطب ليوناردو حاجبيه . وجلس الملك على مقعد وجعل يتأمل في الصورة ثم قال : ما اجمل هذا .. وما اغربه ! هذه اجمل امرأة نظرتها .. فمن هي صاحبتها ؟

— هي مونا ليزا زوجة احد رجال فلورنسا

— وهل صورتها من زمان طويل ؟

— من عشر سنوات

— الا لا تزال على ما كانت عليه من الجمال

— لقد ماتت يا مولاي .. فقال احد اعوان الملك وكان شاعراً : ان المعلم قد اشتغل فيها اربع سنوات وهو يزعم انها لم تكمل بعد على ما يشتهي .. فقال الملك متعجباً : — لم تكمل ! .. وماذا يريد بعد .. هي حية لا ينقصها سوى الكلام

وكان فرنسيس الاول من الملوك الذين « يحبون الحياة » فنظر الى المعلم وقال له : بالحقيقة انا احسدك على قضاء اربع سنوات صرفتها تصوّر هذه المرأة . فمثلك لا يحق له ان يشكو من سوء حظه .. وماذا كان يقول زوجها مدة هذه السنوات ؟ وهل كنت اكملت الصورة الآن لو كانت باقية في قيد الحياة ؟ .. وكان الملك يتكلم ويضحك ويغمز بعينه ولم يكن يخطر على باله انه من الممكن ان تكون مونا ليزا بقيت طاهرة الذيل مخلصة لزوجها . ثم قال وهو ينظر الى الصورة : هذا الجبين وهذه العيون . وهذا الفم وهذا العنق و .. ان المصور لا يكفي لصنعه مثل هذه الصورة ان يكون ماهراً في فنه بل يلزم له ان يفهم كل الاسرار المنطوي عليها قلب المرأة وهو سرٌ يعجز الشيطان ذاته عن فهمه . انك تنظر الى امرأة فتخالها لطيفة المعشر . كثيرة الحياء . تضم يديها كراهية يولّمها قتل بعوضة .. ولكن ان انت استرسلت اليها او حاولت ادراك ما يجول في نفسها .. وتقدم

الشاعر وهمس في اذن الملك قائلاً : عرفت يا مولاي عن ثقة ان هذا الرجل الغريب الاطوار لم يكن يحب مونا ليزا ولا احب غيرها من النساء . فهز الملك منكبيه باسماً ثم قال للمعلم — اريد ابتياع هذه الصورة .. فاجفل ليوناردو واجاب : هي غير كاملة يا مولاي

— انت تمزح يا ابي . فانا احظر عليك لمسها من الان وصاعداً واريد الحصول عليها حالاً ! فكم تطلب بها واعلم ان الملك لا يتردد

وشعر ليوناردو بانه يجب عليه ان يجد عذراً لئلا تخرج الصورة من حوزته ولكن لم يكن يدري ما يقوله لهذا الرجل ليفهمه ما هي منزلة الصورة لديه وكيف انه لا يمكنه التخلي عنها بكلما عز وهان فظن الملك ان المعلم يخاف ان يبيعها بثمن بخس . فقال : انت لا تعين الثمن فانا اعينه .. ثم نظر الى الصورة : ثلاثة الاف ريال ذهباً . الا يكفي هذا ؟ . ثلاثة الاف وخمسماية . — فاجاب المعلم وهو يرتجف :

— مولاي انا اؤكد لك . . ثم سكت وزاد اصفرار وجهه

— اربعة الاف يا معلم ليوناردو ! واظن هذا كافياً . وتعجب الحاضرون لانه لم يكن قد دفع مثل هذا المبلغ ثمناً لصورة من الصور . اما ليوناردو فرفع عينيه الى الملك وهو يكاد يختنق من الغم وبقع على اقدامه متوسلاً اليه يبقي له الصوره . وظن الملك ان عرفان الجميل كان داعياً لهذا التاثر فنهض يريد الذهاب وقبل المعلم في جبينه قائلاً : لقد تم الاتفاق .. اربعة الاف ريال ذهباً ندفع لك متى شئت . وغداً ابعث من يحمل اليّ الصورة . فسر يا ابي واعلم اني سأجعلها في مكان يليق بها فتحفظ للاجيال الآتية

وبعد انصراف الملك ارتمى ليوناردو على مقعد خاشع الطرف حزين الفؤاد وهو لا يكاد يصدق ما جرى له فتنازعه افكار غريبة ومقاصد مستحيلة : ايخبئها عن الملك ؟ .. يمتنع عن تسليمها له ولو كان في ذلك هلاكه ؟ . ايهرب بها الى ما وراء جبال الالب ؟ .

— ولما اشتد الظلام امر ليوناردو خادمه بان يوقد المصباح ويسير امامه الى قصر الملك في « امبواز »

وكان الملك جالساً الى الطعام ياكل ويشرب ويضحك مع حاشية منتخبة وسيدات حسان بينهن شقيقة له بارعة الجمال كثيرة اللطف تدعى مرغريتا تحب اخاها محبة تجعلها تعتبر سيئاته حسنات وهفواته فضائل . فامر بليوناردو ان يدخل عليه فدخل المصور قلق البال مطرقاً برأسه الى الارض وجميع السيدات والرجال ينظرون بتعجب ودهشة الى هذا الشيخ الجليل ذي الشعر الابيض الطويل والوجه العابس والنظر الخجول ونهض الملك للقائه

مع شقيقته مرغريتا فرحب به وقال : ماذا تريد ان اقدم لك وانت لا تأكل اللحم اتاكل شيئاً من البقول والاثمار

— شكراً لك مولاي . لي كلمة ارفعها اليك . فالقى الملك عليه نظرة حادة وقال : ما تشتهي ايها العزيز ؟ ثم اخذه بيده الى جانب الردهة ومعه شقيقته مرغريتا فقال الملك مشيراً اليها : ايمكنها البقاء ؟ فانحنى ليوناردو امامها وقال

— نعم وانا اؤمل بان سموها تشفع بي لدى مولاي

— تكلم الآن وانت تدري اني لا ازال مستعداً لمساعدتك

— ان الامر ذاته يا مولاي . فالصورة التي تروم اخذها . وهي صورة مونا ليزا

— لله من غرائب اطوارك ! الم يتم الاتفاق بيننا على الثمن

— ليس مسألة الثمن يا مولاي

— واي شيء اذاً

فشعر ليوناردو مرة اخرى امام نظر الملك اللطيف والعديم الاكتراث بانه يتعذر عليه الكلام مع هذا الرجل عن صورة مونا ليزا . لكنه تجلد وقال

— اشفق يا مولاي ولا تنزع الآن من يدي هذه الصورة فمن قريب تصير لك لان موقي قد صار قريباً . ثم صمت دون ان يمكنه النطق بكلمة اخرى . لكنه نظر الى مرغريتا نظرة فيها معنى تقشعر اليأس . وكان الملك قد قطب حاجبيه وهز منكبيه وبهت حيران . فقالت له اخته : سيدي جد على المعلم بما يلتمسه منك فهو جدير به

— وانت ايضاً تتضرعين له ؟ فوضعت يدها على كتف اخيها واسرت في اذنه : الا ترى انه لا يزال يحبها

— كيف يحبها وقد مات من زمن بعيد

— وهل لا يمكن محبة الاموات ! الم تقل انت ذاتك يا اخي بان الصورة حية ! فكن شهماً ولا تحزن قلب هذا الشيخ . فهبت الملك قليلاً ثم قال مبتسماً

قد اخترت لك ايها المعلم محاماة قوية . فانعم بالاً فانا اجيب سؤلك) فتحول لمعت في عيني المعلم بوارق الفرح ولاحظ الملك ذلك فالقى يده على كتف الشيخ وقال له : لا تخف شيئاً يا ابي . فلا احد ينازعك ليزا . وسأجعلها في مكان يليق بها فتحفظ للاجيال الاتية

وشعرت مرغريتا اللطيفة بدمعة تتلجلج في عينها فمدت يدها الى المصور فقبل تلك اليد بكل هدوء وسكينة